الخوف والدين:
تأملات في الأصول الطبيعية للدين

د. لوكيلي عبد الحليم
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء
المغرب

ملخص

نبتغي في هذه الورقة البحثية بيان أطروحة فلسفية مفادها أن الكثير من التمظهرات الدينية في حياة الإنسان الحامل لدين معين، تجد بذرتها الأولى في شعور الإنسان بالخوف. يدفع هذا الشعور الإنسان في حياة ووجوده، وبحسب ما يملكه من قدرات وإمكانات لا تسعفه في الإجابة عن الكثير من المعضلات الوجودية، إلى حال من القلق الفكري والمعرفي. لهذا، نرمي إلى محاولة تشخيص هذا التلازم المنطقي بين الدين والخوف؛ بما يشكل أصولا طبيعية للدين في حياة الإنسان، مستندين إلى الدفوعات النقدية للفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز وتصوره للمسألة.

كلمات مفتاح: الفلسفة– الدين– الخوف– السلطة– المعرفة.

Abstract

This research paper aims to present a philosophical thesis that many religious manifestations in the lives of individuals adhering to a particular faith find their initial seed in the human experience of fear. This feeling drives individuals, in their lives and existence, and given their limited abilities and resources, which are insufficient to answer many existential dilemmas, into a state of intellectual and cognitive anxiety. Therefore, we aim to attempt to diagnose this logical correlation between religion and fear, which constitutes a natural origin of religion in human life, drawing upon the critical arguments of the English philosopher Thomas Hobbes and his understanding of the issue.

Keywords: Philosophy – Religion – Fear – Power – Knowledge.

مقدمة

إذا كانت الفلسفة ممارسة عقلية تبتغي الكشف عن أسباب الأشياء، فإن الاشتغال على موضوع من الموضوعات القابلة للتدليل العقلي، لابد وأن يكون بحث في أسبابه وأصوله المحدثة له في الوجود–العالم. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاهتمام بالدين بوصفه موضوع هذه الورقة، يقتضي الكشف عن الأسباب والأصول التي تجعل منه سمة بشرية خالصة. وبما أن الحديث عن هذه الأسباب كثيرة ومختلفة بين التصورات الفلسفية والدينية والأنثربولوجية، فإنه يمكن حصر اشتغالنا في حدود بسط إحدى التصورات الفلسفية الحديثة، التي قاربت الموضوع من زاوية جينالوجية تأسيسية عقلية تنطلق من الكشف عن بعض السمات التي تتميز بها الذات البشرية، والتي تتيح أمامها إمكانية القول بأنها ذات حاملة لتصور ديني معين، سعيا نحو استئصال منابع الخوف في ذاتية الإنسانية، أقصد بذلك، مقاربة الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز. وبناء عليه؛ ما أبرز السمات والخصائص التي تميز الذات البشرية، فتجعلها قابلة لكي تكون في وضع اعتقاد ديني؟

أولا: في الإنسان؛ سمات وخصائص.

تتميز الطبيعة البشرية من وجهة نظر هوبز بمجموعة من السمات والخصائص التي يمكن إجمالها في العناصر التالية[1]:

أولا؛ بما أن الإنسان كائن عاقل، فهو يتميز بكونه كائنا معرفيا؛ أي كائنا يسعى إلى معرفة أسباب الأشياء. وإذا كان كذلك، فإنه الكائن الوحيد الذي يتميز بحب المعرفة أو الاستطلاع؛ أي بكونه كائنا فضوليا يسعى إلى البحث عن حضه الحسن من السيئ. يقول هوبز «مما تتميز به طبيعة الإنسان أنه محب للتحري عن أسباب الأحداث التي يراها، وقد يكون بعض الناس يتميز بذلك أكثر من بعضهم الآخر، ولكنهم جميعا يتمتعون بهذه الميزة، بحيث يكونون فضوليين في بحثهم عن أسباب حظهم الحسن والسيئ»[2].

ثانيا؛ بما أن الإنسان كائن يتميز بحب المعرفة والاستطلاع، فإنه ينشأ عن ذلك، أنه الكائن الوحيد الذي يملك القدرة العقلية على فهم بأن كل ما يحدث في لحظة ما، إلا وله سبب في وجوده. يترتب عن ذلك، أن ما من شيء يحدث في لحظة ما، إلا وله نهاية ما. بمعنى آخر، إن الإنسان في سيرورة تكوينه المعرفي يكون على وعي بكون ما يحدث في العالم–الوجود، له أسباب محددة في وجوده، وإذا اعتبرنا ما يوجد، يوجد لأسباب معينة، فإن ذلك يفيد أن ما قد يوجد لسبب معين في لحظة ما، لن يتخذ من الخلود صفة له؛ أي أنه سيكون فانيا، بفناء العالم–الوجود.

ثالثا؛ بما أن الإنسان كائن معرفي يفهم بأن لكل شيء سببا منطقيا في وجوده ونهايته، فإن معرفته بالأشياء تصنف بكونها معرفة تراكمية، من حيث إنه يحمل ذاكرة تحفظ له ما يقدر على استيعابه وفهمه في حدود إمكاناته الذاتية.

وإذا كان الإنسان حاملا لذاكرة تجعله يتذكر ما بقي في ذهنه من مظاهر وآثار للأشياء في العالم–الوجود، فإنه يترتب عن ذلك، أن الإنسان يصنف بكونه الكائن الوحيد الذي في مكنته أن يتذكر ما مضى من أحداث وأشياء قد حمل عنها مظهر أو تمثل ذهني، لفهم ما يقع في حاضره من وقائع وأحداث، لاستشراف المستقبل الجيد أو الخير.

لذلك، إذا كانت سعادة الحيوانات–مثلا– لا تكمن إلا في محاولتها للاستمتاع بما تملكه من طعام، وراحة، وشهوة، على اعتبار أنها كائنات لا تحمل عقلا يجعلها متبصرة بالأشياء في العالم–الوجود، فإن الإنسان يتميز بكونه يحمل القدرة على التبصر التي تتيح له إمكانية استنباط أسباب الأشياء، وربط معرفته في الماضي بما يقع في الحاضر للكشف عن أسبابه، ومن ثم، استشراف المستقبل. لكن، السؤال المطروح هو: هل في مقدور الإنسان أن يدرك مجمل الأسباب الحقيقية الثاوية وراء الأشياء؟

ثانيا: في مقدرة الإنسان على المعرفة من عدمها؟

في الواقع، إن اعتبار الإنسان كائنا معرفيا؛ أي كائنا قادرا على بناء المعنى لذاته والعالم، لا يعني أن في مكنته أن يعرف أسباب الأشياء كلها. فالإنسان بقدر ما يحمل القدرة العقلية التي تميزه عن سائر الكائنات الأخرى، من حيث إنها تجعله كائنا قادرا على فهم وإدراك حقائق الأشياء، بقدر ما يحمل في جوفه النقص والمحدودية. والدليل في ذلك، أن الإنسان كلما حسب نفسه قد أدرك شيئا من الأشياء، إلا ويتبين له حدود جهله به، الشيء الذي يجعله في وضع إعادة الاهتمام به، بغية الكشف عن حقيقته. فيلزم عن ذلك، أن الإنسان مجبول بالهشاشة والضعف، بحيث لا يقدر على تفسير كل الأشياء تفسيرا معقولا. لذلك، يشير هوبز إلى أن الإنسان حينما لا يقدر على تحديد الأسباب المعقولة لحدوث الأثار والمظاهر في الواقع، يفترض بعضها ذهنيا، أو يعتمد في تفسيره لها على بعض الأقوال التي تنسب لمن يتصفون بكونهم أكثر حكمة، أو ثقة في المحيط الذي يعيش فيه[3].

وبناء على هذه السمات التي تتميز بها الذات البشرية، يشير هوبز إلى أن سمتي حب المعرفة، والبحث عن أسباب الأشياء تشكلان لدى الكائن البشري نوعا من القلق (The anxiety). ذلك، أنه «حين يكون المرء متأكدا من أن هناك أسبابا لكل الأشياء التي حدثت في السابق، وستحدث فيما بعد، يكون من المستحيل على من يجتهد باستمرار ليحمي نفسه من الشر الذي يخشاه، ويؤمن الخير الذي يرغب به، ألا يكون في حالة قلق دائم من الزمن الآتي(...)»[4]. فما من امرئ يدرك بوعي كون ما يحدث في العالم–الوجود نتيجة سبب ما، الشيء الذي قد يجعله يحدث في لحظة أخرى للسبب نفسه، إلا ويجعله في حالة من القلق المعرفي، جراء ما قد يحدث له في المستقبل القريب. مما يلزم عن ذلك، أن الإنسان هو الكائن الذي يكون مهووسا بالتفكير فيما يمكن أن يأتي في المستقبل من خير أو شر[5]، أكثر من تفكيره فيما هو كائن في حاضره. لذلك، نجد الكثير من الناس دائمي التفكير في المستقبل، وكأن الراهن لا قيمة له.

في هذا الصدد، يشبه هوبز من يحمل على عاتقه هم التفكير المفرط في المستقبل، نتيجة الفضول المعرفي لما يمكن أن يقع له في المستقبل، أو غياب بعض الأسباب الحقيقية لما يقع، بوضع بروميثوس (Prometheus)، موجد البشر في الميثولوجية الإغريقية، والذي كان يحمل صفة الإنسان المتبصر[6]، والقادر على التنبؤ بالمستقبل. فمما يحكى أن زيوس (Zeus) آب الآلهة والبشر في الأساطير الإغريقية، قد كلف بروميثوس بتكوين شكل البشر، بينما كلف إبيمثوس (Epimetheus) بتكوين الحيوانات. غير أن إبيمثيوس كان سريعا في عملية تشكيله للحيوانات، الأمر الذي استنفد كل الإمكانات والمقومات المتاحة في عملية إيجاد الكائنات الحيوانية، ما جعل بروميثوس في وضع لا يسمح له بتكوين البشر على الوجه المطلوب، خصوصا، وأنه تأخر في عمليته تلك. لذلك، لجأ إلى زيوس بغية مساعدته في تقديم شيء للبشر، لكن، زيوس لم يكن يرغب في جعل البشر في مستوى امتلاك معظم المؤهلات والقدرات التي لن تجلب للبشر إلا الشر. لكن، بما أن بروميثوس كان محبا للبشر، فقد قام بسرقة النار لتدفئتهم، الشيء الذي جعل زيوس في حالة غضب منه، فقام بمعاقبته، وذلك، بتقييده في تل القوقاز «وهو مكان يتميز بمشهد هائل، حيث كان نسر يتغذى من كبده ويأكل في النهار ما كان يصلح في الليل»[7]. وبالتالي، إن «الإنسان الذي يفرط في النظر إلى الأمام بسبب اهتمامه بالمستقبل، يتآكل قلبه طوال النهار خوفا من الموت أو الفقر أو غيرهما من الكوارث، وهو لا يرتاح، ولا يخفي قلقه إلا بالنوم»، مثلما هو الأمر في حالة بروميثوس[8].

ثالثا: الجهل بالأسباب والخوف من المجهول أساس الدين.

جدير بالذكر، أن الجهل بأسباب الأشياء التي وقعت في لحظة ما، أو التي يمكن أن تقع في لحظة مستقبلية، يجعل الإنسان في حال خوف مستمر (perpetual Fear)، مما يمكن أن يقع فيه من خير أو شر. غير أن المشكلة لا تقف عند حدود طبيعة ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من خير أو شر، في ظل الجهل بالأسباب، وإنما في كون «الافتقار إلى العلم؛ أي الجهل بالأسباب، يجعل المرء مستعدا، أو بالأحرى يجبره ذلك أن يعتمد على نصيحة الآخرين وسلطتهم»[9]. مما يعني؛ أن من يجهل الأسباب الحقيقية للأشياء، لا يجد لنفسه من بد لتجاوز قلقه المعرفي، إلا بالاعتماد على آراء الآخرين، دون أن يشك في كون ذاك الذي يأخذ منه ما يزيل عنه حجاب القلق، أنه يمكن أن يكون

مخادعا له. يقول هوبز: «فكل البشر المعنيين بالحقيقة لا بد لهم، إذا لم يعتمدوا على أنفسهم، أن يعتمدوا على رأي شخص آخر، يعتقدون أنه أكثر حكمة منهم، ولا يرون سببا للظن بأنه سيخدعهم»[10]. وبناء عليه، إن الذي يجهل الأسباب الثاوية وراء ما يقع من مظاهر وأثار في العالم–الوجود، يمكن أن يكون عرضة للاستيلاب والخداع، لاسيما، وأنه يعتمد في ملء هوة جهله بما يراه في أقوال ونصائح الآخرين[11].

وإذا كان الإنسان كائنا يحمل في جوفه قلقا معرفيا نتيجة جهله بالأسباب، الشيء الذي يدفعه للاعتماد على ما يدعيه الآخرون، فإن ذلك قد يجعله مستعدا لكي يفسر ما يقع من أحداث، بتفاسير تستند إلى بعض الكائنات غير المرئية. لذلك، يقول هوبز «وأولئك الذين لا يتحرون سوى قليلا عن الأسباب الطبيعية، أو لا يتحرون عنها أبدا، يميلون بفعل الجهل نفسه بماهية ما يسبب لهم الخير أو الضرر العظيمين، إلى الافتراض وإيهام أنفسهم بوجود أنواع مختلفة من القوى غير المرئية، ويفزعون من تخيلاتهم الخاصة، ويتوجهون إليها في أوقات الضيق، كما يقومون أيضا بشكرها حين يتوقعون النجاح، جاعلين من مخلوقات خيالهم آلهة لهم»[12]. يتضح إذن، أن الكشف عن السمات والخصائص التي تتميز بها الذات البشرية، لاسيما، الخوف[13]من المستقبل نتيجة الجهل بالأسباب، تفضي بنا إلى الكشف عن أصول وأسباب وجود مجموعة من الاعتقادات التي ترجع ما لا تقدر الذات الإنسانية على معرفة سببه الحقيقي، إلى الكثير من الكائنات غير المرئية التي تسمى الآلهة (The Gods).

هكذا، كان الخوف (The Fear) من المجهول الذي قد يتبدى في مستقبل الذات، هو سبب نشوء الآلهة. وهو الأمر الذي قد جاء «في قول بعض الشعراء القدامى، إن الآلهة قد خلقها في البداية خوف الإنسان»[14]، غير أنه قول ينطبق على الآلهة الوثنية المتعددة (of the many gods of the gentiles) فقط[15]، وليس على الإله الواحد، والأبدي، واللامتناهي، والكلي القدرة[16]. فالإله الواحد حسب هوبز يمكن التوصل إليه «بسهولة أكبر من خلال رغبة البشر بمعرفة أسباب الأجسام الطبيعية، وميزاتها، وطرق عملها المتعددة، بدل خوفهم مما قد يصيبهم في الزمن الآتي»[17].

فالإنسان الذي يستند إلى الدراسة العقلية للأجسام الطبيعية، بغية الكشف عن الأسباب المؤثرة في بعضها البعض، والحادثة لمجموعة من المظاهر والآثار في العالم، لا بد من «أن يصل أخيرا بالضرورة إلى التفكير في أن ثمة سببا ليس له سبب سابق، بل هو سبب أبدي، هو ما يسميه الناس عامة الإله»[18]. غير أن القول بكون الدارس لأسباب الأجسام وأثارها في الواقع، لابد من أن يكون له سبب واحد هو الإله، لا يعني أن هوبز قد أدرج الإله كموضوعة للاستدلال العقلي، وإنما هو قول يتأسس على افتراض ذهني فقط يجيز القول بكون هناك سبب أبدي لكل ما يقع هو الإله، دون «أن يشكل أية فكرة عنه في ذهنه، تفي بطبيعته»[19]كما يقول هوبز نفسه؛ أي أننا نعرف كونه موجودا فقط، وإن كنا لا نستطيع إثبات هذا الوجود[20].

وبناء على ما سبق، إذا كان الخوف هو سبب نشوء الآلهة عند الإنسان؛ أي سبب افتراض مجموعة من الكائنات غير المرئية التي يفسر بها ما استعصى عليه فهمه، فإن السؤال المطروح هو: ما طبيعة هذه العوامل أو الكائنات غير المرئية التي يعتبرها الجنس البشري سببا للأشياء؟

رابعا: في طبيعة الكائنات غير المرئية.

نظريا، ليس في مكنة أي كان أن يدرك حقيقة الكائنات غير المرئية التي يفترضها الجنس البشري كمقوم من مقومات ملء هوة جهله بأسباب الأشياء. وعلة ذلك، أنها كائنات غير مرئية حتى تكون قابلة للقياس العقلي لتحديد طبيعتها، خصوصا، وأنها ليس إلا خيالات ذهنية بشرية. لكن، بما أن الإنسان هو مصدر خلقها، فقد حاول تقديم مجموعة من الصفات والسمات التي تتميز بها، لذلك، يقول هوبز:

«أما بالنسبة إلى مادة أو جوهر هذه العوامل غير المرئية التي يتخيلونها، فإنهم لم يتمكنوا بتفكيرهم الطبيعي أن يقعوا على أي مفهوم لها باستثناء أنها مماثلة لروح الإنسان، وأن روح الإنسان هي من جوهر ما يظهر في الأحلام لمن يكون نائما، أو في المرآة لمن يكون صاحيا؛

ويعتقد الناس، وهم لا يعلمون أن مثل هذه الظهورات ليست سوى مخلوقات الخيال، إنها جواهر حقيقية وخارجية، ويسمونها بالتالي أشباحا، كما كان اللاتين يسمونها (imagines) و(Umbrae)، ويعتقدون أنها أرواح (أي أجسام هوائية نحيلة)، وأن العوامل غير المرئية التي يخشونها هي مثلها، باستثناء كونها قادرة على الظهور والاختفاء حين تشاء»[21].

هكذا، إن تشبيه مادة أو جوهر الكائنات غير المرئية بروح الإنسان، هو تشبيه محدود بحدود التفكير البشري. ذلك، أن الروح ما هي إلا الحياة التي تجري في الأوصال والشرايين الجسمانية للبشر، وإذا كانت كذلك، فهذا يعني أن الكائنات غير المرئية التي يخترعها العقل البشري، هي كائنات مادية[22]. وإذا كانت كائنات مادية، فهي إذا، أجسام قابلة للحساب العقلي. وإذا كانت قابلة للحساب العقلي، فهي ليست إلا مخلوقات خيالية، ناتجة عن مخيلة الإنسان فقط، ومن ثم، لا علاقة لها بما يسمى الروح، أو شيء من هذا القبيل. بل أكثر من ذلك، إن «الذين يتوصلون بتأملهم الخاص إلى الاعتراف بإله واحد، لا نهائي، كلي القدرة، وأبدي، يؤثرون أن يعترفوا بأنه يستعصي على الفهم، وأنه فوق مداركهم(...)»[23]. وما اعترافهم بكونه روحا غير مادية، إلا من باب التقوى؛ أي من باب تكريمه، وذلك بجعله مترها عن بدائية الأجسام المرئية[24]. مما يترتب عن ذلك، أن مجمل الصفات والسمات التي تطلق على الآلهة/الإله هي صفات وسمات بشرية فقط. لكن، ما الطريقة التي تنتج بها هذه الصفات والسمات التي ترتبط في الغالب بسؤال الحظ عند الإنسان؟

في الواقع، ما دام الجنس البشري يجهل الأسباب الثاوية وراء الأشياء، فإنه يتكون لديه اعتقاد غير سليم لطبيعة السببية في العالم–الوجود. ذلك، أن الذين «لا يعرفون ماهية ما نسميه تسببا (أي جميع الناس تقريبا) لا يملكون قاعدة للتخمين سوى مراقبة وتذكر ما رأوا أنه سبق التأثير في وقت آخر، أو في مرات خلت، دون أن يروا بين الحدث السابق، واللاحق أي تعلق أو ارتباط»[25]. مما يلزم عن ذلك، أن هؤلاء يعتقدون أن الأشياء التي وقعت في لحظة مضت، يمكن أن تحدث في الحاضر للسبب نفسه، الشيء الذي يحمل في اعتقادهم ملامح الخير أو الشر. فالذي يقوم بفعل خير كالصدقة مثلا، وتلاها خير مادي أو معنوي لذاته، يعتقد أنه كلما قام بتقديم صدقة لشخص ما، سيتحقق له الخير نفسه، والحال أن الأمر ليس كذلك. لهذا، يشير هوبز إلى أن مثل هذه الاعتقادات كانت منتشرة في المجتمعات البشرية السابقة، حيث يقول:

«ومن هنا فإنهم يتوقعون نتيجة حدوث أشياء مماثلة في الماضي، أن تحدث أشياء مماثلة في الحاضر، ويأملون بصورة خرافية الحظ الحسن أو السيئ، بناء على أشياء لا تلعب أي دور على الإطلاق في التسبب به؛ كما فعل الأثينيين في حربهم في ليبانتو حين طلبوا فورميو آخر، وفصيل من البومبيين في حربهم في إفريقيا حين طلبوا سيبيوا آخر.(...) وبالطريقة نفسها ينسبون حظهم إلى أحد الحاضرين، أو إلى مكان يجلب الحظ أو النحس، أو إلى كلمات ينطق بها، لاسيما، إذا كان من ضمنها الإله، كما في السحر والشعوذة (وهي ليتورجيا الساحرات)، لدرجة أنهم يؤمنون بكونها تحمل قوة تحويل الحجارة إلى الخبز، والخبز إلى الإنسان، وأي شيء إلى أي شيء آخر»[26]. وبناء عليه، يتبين أن الجهل بطبيعة الكائنات غير المرئية التي يسعى من خلالها إلى تفسير ما يقع له من أحداث، يجعله معتقدا بالكثير من الأشياء التي تبدو غير معقولة نظريا.

غير أن الجنس البشري، لم يكتف بخلق كائنات غير مرئية يعتبرها علة المظاهر والآثار في تحديد طبيعة حظه فيما إذا كان خيرا أم شرا، وإنما جعل لها طقوسا ذاتية وجماعية كتعبير عن احترامها، وتقديرها، ومن ثم، عبادتها. لذلك، تجده يقدم مجموعة من الوسائل كدليل على الاعتقاد بها مثل: «الهدايا، والالتماسات، والشكر، وإخضاع الجسد، وخطابات التبجيل، والسلوك الرصين، والكلمات المحضرة مسبقا، وأداء القسم (أي تأكيد وعودهم الواحد للآخر) من خلال ذكرها»[27]. في مقابل ذلك، إن الطريقة التي تعلن بها الكائنات غير المرئية عما يمكن أن يحدث للبشر في المستقبل، «خاصة فيما يتعلق بحظهم الحسن أو السيئ، أو بنجاحهم أو فشلهم في عمل معين، فإن الناس بطبيعتهم يقفون موقف الحائر»[28]، إذ لا يعلمون ما يمكن أن يحدث، سوى بناء اعتقادهم على أحداث في الماضي، كونها يمكن أن تحدث في الحاضر، أو في المستقبل بالطريقة نفسها، الشيء الذي يحدد من خلاله طبيعة الحظ السيئ والجيد.

وبناء عليه، يشير هوبز إلى أن في الاعتقاد بالكائنات غير المرئية، والجهل بالأسباب الثانية الثاوية وراء الأشياء، على اعتبار أن السبب الأول هو الإله، وتعبد البشر تجاه ما يخشاه، واعتبار الأشياء التي تحدث لأسباب طبيعية عادية توقعات لتحديد حسن الحظ من سوئه، توجد «البذرة الطبيعية للدين»[29]. وهي بذرة تغذت ونمت في السياقات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات البشرية، نتيجة الاختلاف والتباين الحاصل في أحكام الناس وأهوائهم[30]، الأمر الذي يجعل طقوس مجتمع ما، خرافة وسخفا بالنسبة للآخر، والعكس صحيح[31].

وبما أننا قد أشرنا سلفا إلى أن الإنسان الذي لا يقدر على كشف أسباب الأشياء بنفسه، يمكن أن يلجأ إلى البحث عنها في أقوال وآراء الآخرين، فإن الآخر الذي يملك معرفة أكبر قد يجعل من معرفته تلك، مطية لإنماء بذرة الدين في محيطه، لغايات محددة في نفسه، لاسيما، وأن «الناس يحبون أن ينصت إليهم الآخرون»[32]مثلما يقول هوبز. لذا، يمكن القول بأن «هذه البذور قد تم زرعها من قبل نوعين من البشر»[33]؛ فالنوع الأول؛ يتجلى عند أولئك الذين سعوا إلى تغذية وإنماء البذور الأربعة التي هي العنصر الطبيعي الأساس لظهور الدين لدى الجنس البشري، بحيث عمل هؤلاء على نسج جملة من التعاليم التي تغذي الخوف من الزمن الآتي، بغية جعل الذين يعتمدون عليهم في المعرفة، أكثر استعدادا للطاعة، واحترام القوانين المفضي إلى السلام المدني[34]. أما النوع الثاني؛ فإنه يتجلى في أولئك الذين غذو البذور الأولى للدين ليس باسمهم، وإنما بأمر من الإله. غير أن نشر هذه التعاليم، ستتخذ هي الأخرى، في النوع الثاني دلالات ومعاني كانت تبتغي جعل الناس في حالة من الطاعة واحترام القوانين في المجتمع المدني. وكأن هوبز يعتبر أن الخوف مصدر الدين سواء كان صناعة بشرية، أم أمرا إلهيا. وعليه، «إن النوع الأول من الدين هو جزء من السياسية البشرية، وهو يعلم بعضا من الواجبات التي يطلبها ملوك الأرض من رعاياهم. والنوع الثاني من الدين هو سياسة إلهية، وهو يتضمن تعليمات للذين يعتبرون أنفسهم رعايا في مملكة الإله»[35]. أما النوع الأول، فهو جانب خاص بمؤسسي الدول، وواضعي القوانين من الوثنين (The Gentiles)، بينما النوع الثاني، فهو جانب خاص بإبراهيم، وموسى، والمسيح، الذين جاؤوا بقوانين مملكة الإله.

جدير بالذكر، أن وعي من يملكون سلطة تغذية وإنماء البذور الطبيعية للدين في الذات البشرية، بمجمل الخصائص والسمات التي تبرز طبيعة الهشاشة التي يتصف بها الإنسان، جعلوا من ذلك مطية لوصف مجموعة من الأشياء في العالم بكونها آلهة لها شأن ودخل في ذلك. بحيث «يكاد لا يوجد شيء فيه له اسم، إلا واعتبره الوثنيين في مكان، أو في آخر إله، أو شيطان، أو ادعى شعراؤهم أن روح ما تحييه، أو تسكنه، أو تتملكه»[36]. فمادة العالم التي لا شكل لها، كانت إلها يسمونه الكاووس (Chaos)[37]، والسماء، والمحيطات، والكواكب، والنار، والرعد، كلها كانت تعتبر آلهة. بل حتى بعض البشر، والطيور، والعجول، والحيات...كانت تؤله. بالإضافة إلى وصفهم لكل ما يوجد في الطبيعة من أشياء كونها آلهة أو شياطين، حيث يقول هوبز:

«كانوا يملؤون كل الأماكن تقريبا بأرواح يسمونها الشياطين؛ فالسهول ملأوها بمخلوقات اسمها بانس وبانيسس، أوساتيريس[38]؛ والغابات بأخرى اسمها فاونس[39]، وبالحوريات، والبحار بالتريتون[40]، وبحوريات أخرى، وكل نهر أو نبع بشبح يحمل اسمه ومعه حوريات، وكل مسكن ملأوه بمخلوقات لايرس[41]، أو الآلهة المترلية، وكل إنسان بجينيسوس[42]، والجحيم بأشباح ومسؤولين روحيين مثل: شارون[43]وسيربيوس[44]وفيوريو[45]، وفي الليل ملأوا جميع الأماكن بكائنات اسمها لافاي، وليمورس[46]، وبأشباح الموتى، وبمملكة كاملة من الجنيات والمخلوقات الوهمية»[47].

زيادة على ذلك، إن مؤسسي الأديان الوثنية في ظل وعيهم بسمة الجهل بالأسباب الثانية التي تصاحب البشر، «انتهزوا الفرصة لكي يضيفوا إلى جهلهم، بدلا من الأسباب الثانية، نوعا من الآلهة الثانية المساعدة؛ وهكذا فقد نسبوا الخصوبة إلى الزهرة، أو سبب الفنون إلى أبولو، والحنكة والمهارة إلى عطارد، والزوابع والعواصف إلى إيولوس[48]، والتأثيرات الأخرى إلى آلهة أخرى، لدرجة كاد معها أن يكون عند الوثنيين تنوع في الآلهة يوازي تنوع الأعمال»[49]كما يقول هوبز. وبما أن الإنسان يعيش قلقا من التوقعات التي يمكن أن تحدث له في المستقبل، فقد خلق مؤسسو الأديان الوثنية عددا من السبل الخرافية للتوقع[50]، حيث جعلوا الناس في حال اعتقاد بكون معرفة حظوظهم متوقفة على بعض الإجابات الغامضة أو الخالية من المعنى، والتي تكون كذلك مقصودة، حتى لا تثير الشكوك في نفوس متلقيها[51]. فكان

هناك من يدعي معرفة حظه من هيئة النجوم والأبراج، وهناك من كان يعرف حظه من المخاوف التي تنتابه في لحظات تفكيره في المسألة التي يبتغي التوقع لها، والتي كانت تسمى بكلمة نذير (Thumomancy). وأحيانا هناك من يستند إلى أقوال وتنبؤات الساحرات، اللواتي كانوا يزعمن الالتقاء بالموتى، مما كان يطلق على هذا العمل اسم (Necromancy)؛ أي التعويذ وأعمال السحر لمعرفة الحظ الحسن من السيئ. كما أن هناك من كان يعتبر أن معرفة الحظ مرتبط بالسماع للحمقى والمجانين، من حيث إن الأحمق تسكنه روح إلهية في نظرهم، وهو ما كان يطلق عليه كلمة حماسة (Euthusiam)، أو نبوءة أو وحيا إلهيا[52]. كما أن هناك من كان يعتقد بمن يعتبر نفسه نبيا من أنبياء سبيل (Sibyle)[53]، أو ذاك المنجم الفلكي «دونوزدا» (Nostradamus) في ما يدعونه من تعاليم.

بالإضافة إلى أن هناك من كان ينطلق من العرافة لمعرفة حظه؛ مثل طيران الطيور، أو غذائها، أو من أحشاء أضاحي الحيوانات، وهو الأمر الذي كان يسمى بالكهانة (Haruspicy). ثم، إن هناك من كان يعتبر بكون الأحلام دلالة على الحظ الخير من السيئ. وهناك من كان يعتقد بأن طبيعة حظه قائم على نعيق الغربان، أو أصوات الطيور. كما أن هناك من كان يعتبر حظه متوقفا على ملامح وجهه، فإذا كانت ملامح وجهه جميلة، فذاك حظ حسن، أما إذا كانت سيئة، فذاك حظ سيئ. ثم، إن البشر في المجتمعات الوثنية كانت تعتقد بكون الحظ يأتي من بعض الأحداث الطبيعية التي تقع في العالم، كالزلازل، والبرق، والفيضانان، والكسوف ...إلخ.

أما فيما يخص العبادات التي كانت تقدم للآلهة، فإن صانعي الأديان الوثنية اهتموا بتخصيص أماكن للعبادة، نحتوا فيها أو عليها بعض الصور التجسيدية التي تبدو بأنها تأخذ من صورة الإنسان شكلا لها، واعتبروا ذلك إلها ينبغي أن يعبد. لذلك، يصف هوبز أولئك الذين يعبدون الأصنام والصور التي يعتبرونها آلهة حُق أن تعبد بالحماقة، حيث يقول: «لقد كان الوثنيين يتصرفون بحماقة عند عبادتهم الرسومات، ظنا منهم أنهم يعبدون الآلهة»[54]. لكن، ما دامت العبادة التي كانت تقدم من البشر للآلهة، محددة بنوع من الطقوس الممزوجة بالشعر والموسيقى، فإن العبادة كانت تبدو للناس ممارسة معقولة، لذلك، يقول هوبز: «بالمقابل، كانت ممارستهم منطقية، لأنهم كانوا يفعلون ذلك، بواسطة الأبيات (الشعرية)، والموسيقى، وبواسطة الصوت، والآلات في آن»[55]. بالإضافة إلى أن أماكن العبادة ستصبح مكانا مقدسا للعبادة فقط، حيث ستخصص لها بعض الأموال والحراس، حتى تكون المراسيم متكاملة الأركان أمام الناس، ومن ثم، وعيهم بكون الآلهة موجودة بحق.

كما سيتم وسم الآلهة ببعض الصفات البشرية، كالإحساس والكلام والجنس والتزاوج، ليس بين الآلهة فقط، وإنما بين الآلهة والبشر، الشيء الذي أدى إلى خلق كائنات هجينة كباخوس، وهرقل في الاعتقادات الأسطورية القديمة[56]. ولعل هذه الصفات البشرية التي غالبا ما تطلق على الآلهة/الإله متواترة في القصص والأساطير الدينية منذ القدم، فلو أخذنا مثلا قصة نشأة الخلق في أسطورة «ثيوغونيا» سنجد بأن الآلهة تتزاوج مع بعضها البعض، وتغضب، وتفرح، وتظلم، وتعدل...، وكأننا أمام كائنات ليس لها حال واحد، بل هي متعددة الأحوال، بحسب الظروف والسياقات. وبناء على ما سبق، يتبين أن خالقي الأديان الوثنية قد اهتموا بكل التفاصيل التي تفضي إلى الاعتقاد بكون الآلهة موجودة على وجه الحقيقة.

خاتمة

حاصل القول، لقد قدم لنا الفيلسوف الإنجليزي في تحليلاته الفلسفية مقاربة نقدية متقومة على أسس معرفية في عملية كشفه للبذرة الأولى للدين. لقد وجد الإنسان حاملا لمجموعة من القدرات التي لا تسعفه في أن يكون كائنا خارج دائرة الدين والتدين. وإذا كان كذلك، فإن قصور هذه القدرات التي يملكها يجعله في حال من القلق، ما يجعله في حالة من الخوف من المجهول، الشيء الذي يدفعه إلى الوثوق في من هم أكثر حكمة وحنكة منه، رغبة في التخلص من تلك التخيلات والتأملات التي لا يجد لها تفسيرا منطقيا معقولا. لكن، إذا كانت علة الدين هي الخوف من المجهول؛ أي تلك اللحظة التي لا يقدر فيها الإنسان على تفسير بعض الحوادث في الوجود، فإن ذلك، قد يعني في سياق هوبز أن زيادة منسوب الجهل=الخوف يدفع الإنسان إلى التدين، لكن واقع اليوم، يبين أنه رغم زيادة منسوب المعرفة يزيد معهم منسوب الاعتقاد والتدين، الشيء الذي يفيد أن ما يتحدث عن هوبز مرده إلى نزعة تفسيرية عقلية مشروطة، وليس حكما أو قاعدة كلية.

الهوامش:

1 توماس هوبز، اللفياثان: الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة. ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب؛ مراجعة وتقديم رضوان السيد. ط. 1. أبوظبي: معهد أبو ظبي للثقافة والتراث، 2011، ص.ص.71-73.

2 المصدر عينه، ص.113-114.

3 توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص.115.

4 المصدر عينه، ص.115.

5 يرى هوبز أن التفكير في المستقبل يجعل الإنسان دائم التفكير في كسب ما يساعده على مواجهته، بغية تحقيق ما هو خير لذاته، والابتعاد عما هو شر لذاته. أنظر:

- Thomas Hobbes, De La Nature Humaine; ou exposition des facultés, des actions et des passions de l'âme, et de leurs causes déduites d'après des principes philosophiques qui ne sont ni reçus ni connu. Trad. Baron D'Holbach. 1ᵉéd. (Saguenay: les classiques des sciences sociales (bibliothèque numérique), 2002). p. 40.

6 توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 116.

7 المصدر عينه.

8 المصدر عينه.

9 المصدر عينه، ص. 109.

10 توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 109.

[11] Michel Malherbe. Thomas Hobbes Ou L'œuvre de la raison. 1éd. (Paris: Libraire Philosophie J. Vrin, 1984), p.223.

[12] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 113.

[13] يعتبر الخوف من العواطف الأكثر طبيعية في الإنسان. أنظر:

– مايكل ألين جيلسبي. الجذور اللاهوتية للحداثة. ترجمة فيصل بن أحمد الفرهود. ط.1. (بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع، 2018)، ص. 272.

[14] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 116.

[15] Thomas Hobbes. Leviathan. Edited With an introduction and notes by J. C. A Gaskin. 1sted. (Oxford: oxford university press,1996), p. 72.

[16] يرى «هايج باتابان» أن هوبز في حديثه عن الدين، لا يبين بوضوح شديدا هل الإله هو أيضا خلق بشري ناتج عن خوف الإنسان أم لا. أنظر:

Haig Patapan. "Politics of immortality: Hobbes on "humane and divine Politiques". Political Theology. – V.18, N°1, pp.60-77. (2017),

[17] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 116.

[18] المصدر عينه، ص. 112.

[19] المصدر عينه، ص. 112.

[20] Thomas Hobbes, Du Citoyen. Trad. Philippe Crignon. 1éd. (Paris: GF Flammarion, 2010), p. 336.

[21] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 117.

[22] يرى «السيد ولد أباه» أن معيار النقد الذي اعتمده هوبز في اعتباره للمعتقدات الدينية ليست إلا أهواء نفسية أو تخيلات غير موضوعية، هو النموذج الميكانيكي في مقاربة الطبيعة. أنظر:

–السيد ولد أباه، **الدين والسياسة والأخلاق؛** مباحث فلسفية في السياقين الإسلامي والغربي. ط.1. بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع، 2014، ص. 275.

[23] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 117–118.

[24] المصدر عينه، ص. 118.

[25] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 118.

[26] المصدر عينه.

[27] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 119.

[28] المصدر عينه.

[29] المصدر عينه.

[30] يقول الباحث «ميشيل ماليغب» في سياق تبيان الأساس الذي يقود الناس إلى الدين عند هوبز ما يلي «إن الذي يقود إلى الدين هو الهوى، وليس العقل» عند هوبز. أنظر:

-Michel Malherbe, Thomas Hobbes Ou L'œuvre de la raison, op. cit., p. 224.

[31] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 119.

[32] المصدر عينه، ص. 112.

[33] المصدر عينه، ص. 119.

[34] Haig Patapan. "Politics of immortality: Hobbes on "humane and divine Politiques", op. cit., p. 60-77.

[35] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 120.

[36] المصدر عينه.

[37] Chaos؛ هي كلمة متواترة في الميثولوجية الإغريقية، حيث كان المقصود بها المادة الأولى التي لا شكل لها، إنها الخواء، والفوضى، أو الشيء الذي لا نستطيع التمييز فيه بين شيء، وآخر، والتي تكون منها العالم.

[38] Satyrs: يقصد بها في الميثولوجية الإغريقية تلك الكائنات، والأشباح الأنثوية التي كانت تصاحب الإله دينيسيوس، والحوريات، وهي كائنات لها شكل مزدوج شبيه بحيوان له رأس رجل، وسيقان، وقرون ماعز، وذيل.

[39] Fauns: هي كائنات لها شكل مزدوج؛ جزء بشري، وآخر حيواني مثل الماعز، وهي شبيهة بساتيرس Satyres، واسمها له ارتباط وثيق بإله كان يعيش في الغابات، والحقول، والقطعان، لذلك، كانت تصورها الميثولوجية القديمة في كونها تستوطن العيش في الغابات، وتستمع بالغناء.

[40] Tritons: هو ابن إله البحر الأكبر بوزيدون Poséidon، حيث يوصف في الأساطير القديمة بكون شكله كان خليطا من ملامح البشر، والوحوش.

[41] Lares: هي آلهة رومانية تعنى بالاهتمام بالعائلة، والإنسان بشكل عام.

[42] Genius: جينيوس هو إله كان يعتقد في الديانة الرومانية أنه يسكن الإنسان، كما أنه المسؤول عن تلك القدرة التي يمتلكها البشر للتزاوج، واستمرارها.

[43] Charon: كان يقصد به ذلك الإله الذي يتكلف بأرواح البشر، عبر نقلها من نهر ستيكس إلى هاديس.

[44] Cerberus: يحيل سيربيروس إلى ذلك الحارس المكلف بالمدخل السفلي للعالم، وهيئته على شكل كلب متوحش، لذلك، يطلق على حارس نهر هاديس، كلب حراسة هاديس.

[45] Furies: اسم يطلق على الأرواح الأنثوية التي تصاحب أولئك الذين يرتكبون الفواحش، والفسوق مع المحارم.

[46] Lemures أو Lavae يقصد بها أشباح الموتى في الميثولوجيا الرومانية.

[47] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص.120-121.

[48] Aeolos: يقصد به حارس الرياح في الأساطير الإغريقية.

[49] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 121-122.

[50] المصدر عينه، ص. 123.

[51] ففي ظل غياب المعرفة الواضحة بتلك الكلمات التي كان يستعملونها مؤسسي الأديان، لم يكن أمام الناس إلا التصديق بها، لذلك، يقول هوبز: «والجهل بدلالات الكلمات هو افتقار إلى الفهم، وهو يجعل الناس مستعدين لأن يقبلوا عن ثقة، ليس الحقيقة التي يعرفونها فقط، إنما الأخطاء أيضا؛ بل أكثر من ذلك، الكلام الفارغ من المعنى الذي يقوله من يثقون بهم، فلا الخطأ، ولا انعدام المعنى يمكن كشفهما دون فهم تام للكلمات». أنظر:

-توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 110.

[52] المصدر عينه، ص. 123.

[53] ميرسيا إلياد. **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**. ج 1. ترجمة عبد الهادي عباس. ط.1. (دمشق: دار دمشق للنشر والتوزيع، 1986-1987)، ص. 124.

[54] توماس هوبز، **اللفياثان**، مصدر سابق، ص. 358.

[55] المصدر عينه.

[56] المصدر عينه. ص. 122.